المبحث الاول

الغريزة والعقل

الغريزة قوّة فطريّة ، تصدر عنها أفعال قهريّة لغاية محدودة .

والعقل ملكة كسبيّة ، تتولّى ضبط الأفعال ضبطاً إراديًا بتدبير خاصّ ، لغرض مقصود .

تفاضل العقول

وباختلاف وسائل الكسب تتفاضل عقول الأشخاص ، فتتنوّع الأعمال الناجمة عنها ؛ على أنّ عقل الشخص الواحد تتفاوت أفعاله ، باختلاف أطواره والمؤثّرات فيه .

أمّا الغرائز فكلّ نوع منها يجرى على منوال واحد ، قلّما أدركت فيه تفاوتا .

الفرق بين الغريزة والعقل

فأعمال العقل متخالفة ، وأعمال الغريزة متشابهة . يظهر لك هذا الفرق جليًا عند مراقبة شئون الناس فى تدبير مصالحهم ، والافتنان فى مصانعهم والتحيُّل فى المنافسة والغلبة . ولا ترى مثل ذلك لدود القزّ فى صنع الحرير ، ولا للنحل فى جمع رحيق الأزهار ، ولا للخُطّاف فى المهاجرة .

وقد جعل بعض الباحثين الغريزة (الإلهام) خاصّة بالحيوان .

وجعل العقل حبساً على الإنسان . ورأى آخرون أنّ عند الإنسان غرائز تزيد على ما عند الحيوان ، وكرّمه الله فمنحه العقل الذى به يصوغ الأحكام بالقياس على ما خبره بنفسه ، وما عرفه من غيره . ومال آخرون إلى أنّ الغريزة فى الحيوان ثابتة الكيان ، وتتهذّب فى الإنسان ، ومنها إذ ذاك يتولّد العقل .

فالغريزة والعقل عند الإنسان قوّتان منفصلتان ، فتتولّى الغريزة تدبير الجسم فى الطور الأوّل من الحياة ، وبعد ذلك يقوم العقل مقامها تدريجاً حتى تتضاءل الغرائز وتتسيطر القوى العاقلة ، غير أنّ الغرائز حينئذ تُبقى أثراً يدلّ على حالتها الأولى التى اشترك فيها الإنسان والحيوان . ويذهب الحكيم وليم جيمس [١] إلى ضرورة وجود الغرائز فى تركيب الإنسان ، ولو بعد استيفاء العقل حظّه من الكمال ؛ وإنّ نموّ العقل لا يدلّ على أنّ الغرائز ضعفت وفنيت ، بل يدلّ على أنّها تهذّبت ، ليتسنّى لها مزاولة الأمور وتدبير الشئون . وقد اعتدّ بهذا الرأى المتأخّرون من المربّين .

---

(١) (William James) وليم جيمس توفى سنة ١٩١١ عالم امريكى نبغ فى الحكمة العقلية وقام بتدريسها فى جامعة هارفارد (نيويورك) تآليفه جذابة فياضة سلك فيها مسلك الابداع

الغرائز عند الحيوان

الغرائز البعيدة عن شوائب الكسب

إنّ العالم مورجان[١] شرح ما عسى أن يكون غريزة بحتة شرحاً تجريبيًّا . جمع بيض دَجاج ، وهيّأه للإفراخ ، فسمع صياح الأفراخ قبل نَقْف[٢] البيض ؛ ووجد الفرخ وهو داخل القَيْض[٣] والغرْقِئ[٤] يحاول أن يخز الخزانة الهوائيّة الداخليّة ، ليستنشق مافيها من الهواء ، ثمّ يشقّ القشرتين بنفسه ليخرج إلى عالم الحياة . وضع هذه الأفراخ فى حظيرة ، وعزل بعضها عن بعض ، ورمى اليها حبوباً مخلوطة بالحصى ، فشاهدها جميعاً تتّبع نظاماً واحداً فتزدرد الحبّ وتنبذ الحصى ، ثمّ تدلك منقارها بالأرض يَمنة ويَسرة ، تفادياً ممّا يكون علَق به ، ثمّ عاد نخلط هذا الحصى بالحبّ ، ورمى به إليها ، فرآها تفعل مافعلته أوّلا ، يَهيجها نظر الحَبّ ويبعث فيها الشوق إلى التقاطه ، ثمّ إنّ ذوقها الفطرىّ يدفعها إلى زرده أو نبذه . كلّ هذه الحركات المنتظمة المتجانسة خاضعة لسلطان الغريزة ولا دخل للكسب فيها .

ومن يطّلع على غرائز الحيوان لا يسعه إلاّ الدهشة من بديع خلقها ، وغريب أثرها . فنمل الحقول بحذقه الفطرىّ ينقل بيضه

(١) (Lewis Henry Morgan) لويس هنرى مورجان عالم طبيعى مات سنة ١٨٨١ واشتهر بين الامريكيين بابحاثه فى علم الانسان (٢) ثقب

(٣) القشرة العليا اليابسة على البيضة (٤) القشرة الملتزقة ببياض البيضة

من ركن إلى آخر تكون حرارته كافيـة لفقسه . والخُفَّاش [1] يتّقى ما يقع أمامه من الحواجز، وهو طائر فى جنح الليل ، بما يشعر به من الصدى . فإنَّ جناحيه يهزّان الهواء ، فتنتشر أمواجه ، وتنعكس على ما تلاقيه من الأشباح ، وتعود إليه فيشعر بها .

والعنكبوت تنزل من لعابها خيطا، تلصق طرفه بالسقف ، ثمّ تهبط عليـه أو تصعد ، وتنسج من خيوطه شِباكا ، تتّخذها شَرَكا لصيد الذباب .

والحرباء تتلوّن بلون ما يجاورها ، فيكون ذلك ردءًا يدفع عنها العدوان . والقُنفُذ وقد تسلّح جسمه بالحسك ، يضمّ بعضه إلى بعض إذا أحسّ مكروهاً . والحَلَزون يرتدّ إلى صدفه . والقطّ ينتفخ فيحكى صولة الأسد فى ساعة الخطر . ولكلّ حيوان خاصّة تناسب أعضاءه يجرّدها للدفاع عن حياته ، ويعرف بغريزته كيف يستعملها ويناضل بها ، حرصاً على نفسه وعلى حياة نوعه .

والفراشة عنـد ما تَدِبُّ فيها الحياة ينمو فيها الوازع للسعى وراء القوت، ولحفظ النسل ، فتعرف أين تضع بيضها ، وكيف تدّخر القوت لصغارها ، ناسجةً فى ذلك على منوال سلفها ، مع أنّها لم تختلط به اختلاطاً يؤذن بالمحاكاة .

أمّا الإنسان فقد خلق ضعيفاً محتاجاً إلى المعونة فى كلّ مطالب الحياة . ولا يُدْرَى أهذه طبيعة فيه ؟ أم أثر فيه التحضّر، فحرمه منذ

(١) الوطواط

أجيال مديدة لذّة الاستفادة من تمرين غرائزه ، ففقد النخوة ، وورث الجمود ، وتعوّد الاستناد إلى غيره ؛ ولا يزال الضعف يتسرّب إليه من جيل إلى جيل ، كلّما ارتقت به المدنيّة إلى معارج الكمال ، شأن الحضريّ إذا قيس بالبدويّ .

واعلم أنّ المعز والبقر يشبهان الغزال وبقر الوحش ؛ غير أنّ البيئة فرّقت بين طبيعة كلّ منها ، فضعف المعز ، وقوى الغزال ، إلى حدّ أنّك لو تركت المعز دون أن تُمِدّه بالغذاء ما سعى إلى القوت سعى الغزال ، بل تعييه الحيل فى الاحتفاظ بحياته فيموت جوعا .

الافعال المنعكسة والغريزية والعقلية

الأفعال المنعكسة مصدرها النخاع الشوكيّ ، ويَهيجها المؤثّر الخارجيّ ، كما إذا حككت قدم نائم فإنّها تنسحب من مركز التأثير . وقد حقّقت التجارب أنّ الضفدعة إذا جرّد مخّها ، وضغط أحد جوانبها ، فإنّ قدمها المؤخّرة التى فى جانب العضو الواقع عليه تأثير الضغط تتحرّك لمعارضة المؤثّر . ومن هذا النوع بكاء الطفل عقب الولادة عند ما يستنشق الهواء . ومنه العطس والسعال والتنهّد والتثاؤب وَطَرْفَة العين .

أمّا الأفعال الغريزيّة فمجموع أفعال منعكسة ، على ما حقّقه

الحكيم سبنسر[1]. فإنّ غريزة الهرب من العَدُوّ مثلا تتضمّن عدم اطمئنان النفس ، وخوفَ البطش ، ودهشةَ الفكر ، وغليانَ الدم ، واضطرابَ الأعصاب ، وسرعةَ التنفُّس .

أمّا الأفعال العقليّة فمصدرها المخُّ انظر هذا الشكل . فالحواسّ

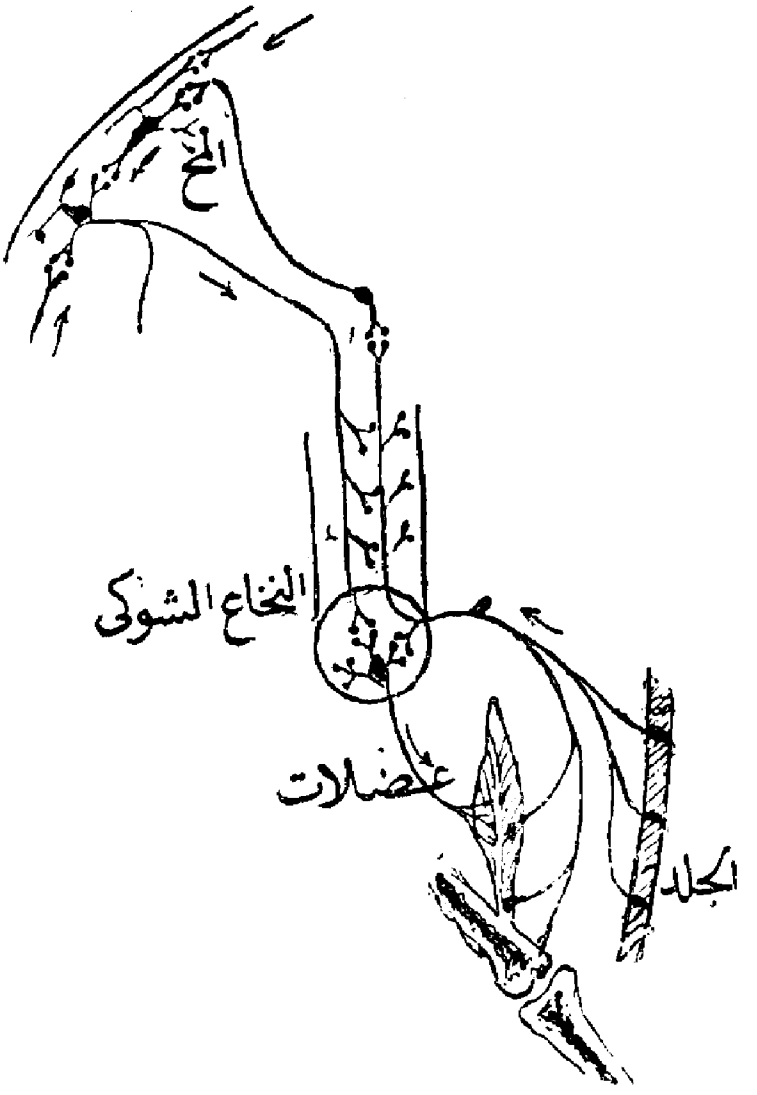

(١) (Herbert Spencer) هربرت سبنسر توفى سنة ١٩٠٣ م هو الحكيم الانجليزىّ الطائر الصيت المشهور بالحكمة والبراعة فى الكتابة . طرق كثيراً من أبواب الحياة واشتغل بالهندسة والسياسة والشئون الاجتماعية ، وتزوّد منها بالحقائق الجمة التى ساقته طوعاً أو كرهاً إلى طرق أبواب الحكمة ، والتبحر فى العلوم العقلية ومباحث التعليم

تنفعل بالأشياء ، فترسل أثر انفعالها إلى المخّ من طريق أعصاب الحسّ، وهنا يبتدئ الإدراك ثمّ الوِجدان . وبعد ذلك يهبط الإذن إلى أعصاب الحركة فالعضلات لتنفيذ الحكم دون مانع يعترضه ، ما دام الجسم سليم الأعضاء ، قادراً على الحركة ، مجرّداً من قيود الاستعباد ، مسوقاً بدافع من الشوق ، وإن يكن دقيقاً كما هو فى الأفعال الغريزيّة ، فإنّ لها حالات نفسيّة كحالات الأفعال العقليّة . ومن هذا الشوق ما يشاهد عند القطّ والكلب من محبّة الوطن . ومنه إشفاق الدجاجة على أفراخها . فتخيّمها بجناحيها خوفاً عليها من تأثير الجوّ . ومنه لذّة الظفر على العدوّ والنكاية به ، ولو تكبّد الشخص فى سبيل إرهاقه ما لا طاقة له به من التعب . ومنه الميل إلى حفظ النوع عند الأُمّ التى لا يغيب عنها ما تلاقيه من الآلام فى الإرضاع والتربية وغيرهما . ويشاهد مثل ذلك عند الدجاجة الحاضنة لبيضها ، فإنّها لا تنفكّ ذابلة الجسم مضطربة الأعصاب ، وإذا حيل بينها وبين بيضها تثور وتغضب . فهذا كلّه يدلّ على أنّ الوِجدان عامل كبير لتحقيق الأعمال ، وأنّ الجسم فى سبيل تحقيق مطالب الغريزة لا يبالى أن يحارب النوازل ، ويكافح المصائب ليدرك أمانيّه .

الوراثة فى الغرائز والعادات

عرفت أنّ الغريزة قوّة فطريّة تصدر عنها أفعال قهريّة لغاية محدودة .

أمّا العادة فإنّها مرونة ، تحدث من تكرار ماسبق للعقل مزاولته من الأعمال ، بحال تجعل عرضها آليّا ، بدون الاستعانة بالعقل . فبين الغريزة والعادة شَبَهٌ فى الغاية ، وتباين فى الوَساطة .

وقد اتّفق العلماء على أنّ الغرائز تورث . واختلفوا فى وراثة العادات ، ففريق أجازها ، وفريق منعها ، وكلاهما يُدلى بالحجّة .

مجيزو الوراثة للعادات

فمجيزو الوراثة يستدلّون بأمر لا يعتدُّ به إلاّ علماء الآثار الحيويّة ، وهو مايشاهدونه من التحسين التدريجىّ فى البقايا المتحجّرة من النبات والحيوان . قالوا لم يجئ هذا التحسين عرضا ، وإنّما أوجدته الممارسة والتمرين . فالحيوان إذا استعمل عضواً فى قضاء مصالحه فإنّه يقوى ، وتنتقل حاله بالوراثة من الأصل إلى الفرع ؛ واستدلّوا على ذلك بانتقال المرض بالوراثة من الأب إلى ابنه .

مانعو الوراثة للعادات

ومانعو الوراثة — وهم النشوئيّون — يعتقدون أنّ هذا التغيُّر إنّما أتى بتأثير المصادفات ، وهى ليس لها نظام محدود ، فقد تظهر فى الطول أو العرض أو اللون أو القوّة ، والفطرة تختار الأصلح ، والحياة جهاد وجلاد ، والجسم لا يحيا إلاّ إذا تغلّب على الطوارئ ،

حتّى إذا ضعف عن احتمالها وَهَنَ وَقُضِى عليه . بهذا الرأى فسّر دارون[1] ومشايعوه مذهب النشوء .

ثمّ دحضوا أدلّة مجيزى الوراثة أوّلاً بأنّ الجَدْع والعمى والجهل كلُّها عوارض ولا ينتقل منها شيء بالوراثة . وعادة بتر أذناب الأغنام شائعة بين الرعاة ، ولم يروا فى نِتاجها تشويهاً مثله . وعادة لِبْس الصينيّات الأحذية الحديديّة لتصغير أقدامهنّ فشت منذ أجيال ، وليس لعامل الوراثة فيها من تأثير . وعادة الختان يشترك فيها الوالدان ولا يظهر لها فى الأولاد أثر . أمّا انتقال الأمراض من الآباء إلى الأبناء فسببه العدوى لا الوراثة .

ثانياً حقّق البحث أنّ الخلايا الفارزة لمادّة النسل تخالف خلايا الجسم ، وهى مع ذلك منفصلة عنها إلاّ فيما يتعلّق بالغذاء . فالعمل الذى يؤثّر وقعه فى الجسم ، ويحدث كمالاً أو نقصا ، لا شأن له مع المادّة المفروزة لحفظ النوع . والفطرة وحدها تسلك بالنوع سبيل الصلاح ، وسُنن تنازع البقاء تقضى بالحياة أو بالفناء إذا وجدت أو عدمت الأسباب .

وقديماً ظنّ بعض الطبيعيّين أنّ العضو يحدث الوظيفة ، فاليد تكتب ، واللسان ينطق ، والعين تبصر . ورأى غيرهم عكس هذه القضيّة إذا كان فى العضو استعداد مخصوص للعمل ؛ فاليد إذا

---

(١) (Darwin) دارون توفى سنة ١٨٨٢ تضلع فى علمى النبات والحيوان ، وهو عالم انجليزى برز فى المباحث الطبيعية النشوئية .

تعطّلت عن العمل تشنّجت ، ولا يكون علاجها إلاّ بالحركة ؛ واللسان إذا صَمَت خرِس ، ولا يبرئه إلاّ التمرين ؛ والمرأة المرضع يضخُم ثدياها ، ومن تهملهما لا يكادا يظهران عنـدها ، هذان رأيان لا يخلو كلاهما من تطرُّف . وصفوة القول أنّ العضو ووظيفته يؤثّر أحدهما فى الآخر ، إذ العضو آلة العمل ، والعمل يرهف من حدّه ، ويزيد تركيبَه متانةً بنسبة ما يعانيه من حسن الأداء والمثابرة .

وقد تصدّى غلادستون[1] لمذهب النشوء والارتقاء فنقده حيث قال : إنّى أحاول أن أرى الرقّ الفكرىّ الذى حازه الخلف ، وقصّر عنه السلف ، تصديقاً لعقيدة النشوء ، فلا أكاد أجد له أثراً . لا يدور بخلدى أنّنا أقوى أجساماً من أسـلافنا أبناء القرون الوسطى ، بل أعتقد أنّنا على الضدّ من ذلك ؛ فإذا وازنّا نفوسنا بأسلافنا أبناء القرن السادس عشر مثلاً ، نجد أنهم فاقونا بسطةً فى الجسم والعقل ، ويرشد البحث بالقياس إلى أنّ نابتـة المسـتقبل لا تبشّر بهبات فطريّة أعظم ممّا أحرزنا . غاية ما أفهم أنّ الرقىّ الذى وصلنا إليه إنّما هو ثمرة الجدّ والاختراع ، وترقية شئون الاجتماع ، واحتـكاك العقول التى قَدَحْنا زنادها ففجّرت منابع الثروة ، وأرشدت إلى مناهج الصنعة ، وتبادل المنفعة . هذه كلُّها أمور لا أكاد أتصوّر أنّ للوراثة الشخصيّة فيها أثراً . أمامنا

---

(١) (Gladstone) وليم غلادستون توفى سنة ١٨٩٨ م كان خطيباً مفوهاً يرتجل الموضوعات السياسية الهـامة ويلقيها أينما سار . تقلب فى مناصب انجلترا السامية ، وكان من المحافظين بحسب شعوره ، ومن الاحرار بحسب افكاره

التاريخ حافلاً بأخبار الأُمم التى أخضعت العالم وملكت أقطابه ، ثمّ دالت دُوَلها ، وعفت معالمها. فإذا تسامحناوقلنا : إنّ الحوادث وحدها هى التى هوت ببعض الأُمم إلى الحضيض ، فلا يسوغ لنا أن نتحكّم ونقول : إنّ القوى التى أخذت بيـد الامم الأُخرى إلى معارج الرقّ إنّما هى وراثيّة . كلّ ماصادف طعناً فى النشوء فى الأُمور العقليّة نجده موجّهاً إلى الأُمور الدينيّة والأدبيّة . فالثقة وسلطان الدين فينا أضعف ممّا كانا على عهد الإصلاح اللوثيرى . زد على ذلك أنّ الحرّيّة قد خرج بمدلولها طلاّبها عن الحدود المرعيّة حتّى صارت شروداً وفوضى »

إذا وقفت على هذين المذهبين فى صحّة وراثة العادات ، عَرضنا عليك مسألة لا مُشاحّة فى أنهـا تحتاج إلى رويّة ، وهى ما تحقّقت وراثتـه من الصفات الكاملة فى الإنسان والخيل وكلاب الصيد . فالإنسان يرث بالمحتد نفساً كريمة نبيلة ؛ وأصائلُ الجياد تورّث ذراريها طيب الخلق وسرعة الجرى ؛ وكلابُ الصيد تحتفظ ذراريها بمميّزات فى الصيد والقنص .

فهذه أمور يستدلّ بها الفريق الأوّل على صحّة وراثة العادات ؛ ويؤوّلهـا الفريق الثانى بأنّ الموروث هنا ليس صفة كسبيّـة ؛ بل الموروث حسن تكييف الأعضاء ، واستعدادها لأداء وظائفها على الوجه المحمود ، إذ ليس لها غُنْيَة عن التمرين والممارسة . على أنّ هذه الممارسة إنّما هى تمرين الغرائز التى تحتويها العادات .

ومجمل القول أنّ العادة وراثيّة باعتبار عناصرها المكوّنة لهـا ،

وكسبيّة باعتبار ضمّ هذه العناصر بعضها إلى بعض ؛ كالسلعة المصنوعة من جملة موادّ أوّليّة ، ميّزتها الصنعة ، وألّفت بين أجزائها تأليفاً مناسباً لإرادة الصانع ومبلغ علمه وذوقه . فالبانى يجمع إلى بنائه صخراً وآجُرًّا وملاطا ، ثمّ ينسّقه قصراً فخماً يبدى فيه ما أوتيه من حسن الذوق ، وليس بينه وبين الكوخ الحقير من فرق إلّا فى أوجه النسب ، وإحكام الوضع ، واستجماع ضروب التأثير .

الفطرة ونزعاتها

تضاربت آراء الباحثين فى نزَعات الفطرة فمنهم من ذهب إلى أنّها خير ، ومنهم من ذهب إلى أنّها شرّ ، ومنهم من رأى استعدادها للأمرين ، ومنهم من رأى خلوّها منهما .

من ذهب إلى أن الفطرة خير

(١) ذهب سقراط[1] إلى أنّها خير ، ونفس الطفل فى نظره وعاء لأصول الكمال . فعوّل فى طريقة تعليمه على السؤال والمناقشة فى أىّ غرض يريد ؛ لافرق بين أن يكون الطالب طفلاً أو صبيّا ، شابًّا أو كهلا ، وله طرق خلّابة يستميل بها المسئول إلى إجابة أسئلته بحال

---

(١) (Socrates) سقراط حكيم إغريقى توفى سنة ٣٩٩ قبل الميلاد تربى وخدم جنديا بالجيش الأثينى وامتاز بالاقدام ، ثم اشتغل بالسياسة فكان فيها قطباً ، ثم عمد إلى إصلاح شئون الأمة بطريقة أبدعها فجذب اليه النفوس ، فحقد عليه العلماء المعاصرون ورموه بالزندقة والحطّ من قدر الآلهة وإفساد عقول النشء . من أجل هذا حكم عليه بالاعدام .

يسبر بها غَوْر مداركه ، ويساعده على إدراك الحقيقة . وكان مع جلال قدره وعلوّ كعبه وتوقُّد قريحته يتدلّى إلى أفق التلميذ ، ويختار له من الأمور ما يوافق هواه وفى وسعه الإجابة عنه ؛ ثمّ يناقشه ويسوق له الحقائق باحثاً ومنقّباً ومستشكلا . ولا يزال ينبّهه بالتدريج على الخطأ ، ويفتح له أبواب الصواب بتأليف المقدّمات واستنباط الضوابط حتّى يصل به إلى شاطئ الحقيقة سالما .

بهذه الطريقة البديعة انقادت لسقراط العقول الشاردة ، والميول الجامدة ، والحقائق الفذّة . وتبعه فيها فريق من أساطين المؤدّبين لما اشتملت عليه من دلائل الرصانة والحكمة . وإنّى أسوق إليك مثالاً بسطه آدمس Adams فى كتابه فى التعليم : —

المعلم يا هذا أنَفَسُك حارٌّ أم بارد ؟

التلميذ حارّ .

م رأيت أناساً على المائدة يَنْفُخون فى المرق الحارّ وهم يأكلون ، فليت شعرى ما ذا أرادوا بهذا ؟

ت يريدون تبريد المرق .

م إذن ما الذى يبرّد المرق ؟

ت النفَس .

م كيف ذلك ؟ وقد قرّرت أنّ النفَس حارّ . والحارُّ لا يبرّد الأشياء . فالنفَس حينئذ بارد .

ت هذا حقّ . وأنا أغيّر رأيى فى أنّ النفَس حارّ .

م هل رأيت وَحْوَحَةَ الحوذيّين ؟ وهى أنّهم ينفخون بأنفاسهم فى أيديهم . ولعلّ أغلب التلاميذ يفعلون كذلك فى اليوم القرّ . فلأى غرض هذا ؟

ت غرضهم تدفئة أيديهم .

م فما الذى يسخّن أيديهم حينئذ ؟

ت نفَسهم .

م إذن نفَسهم حارّ . وقد أفضت نتيجة البحث معك إلى أنّ النفَس ليس حارًّا ، وقد علمت منك الآن أنّه حارّ فما ظنّك به ؟

ت هو حارٌّ أحيانًا وبارد أحيانًا .

م متى يكون حارًّا ؛ ومتى يكون بارداً ؟

ت يكون حارًّا فى الصيف . وبارداً فى الشتاء .

م متى ترى الناس ينفخون بأنفاسهم فى أيديهم ليدفئوها ؛ أفى الصيف هذا ؟

ت لا . بل فى الشتاء .

م لـكنّك ذكرت الآن أنّ النفَس يكون بارداً فى الشتاء .

ت ارتبك ولم يدر بما ذا يجيب .

م أىّ الشيئين أكثر حرارة ؛ المرق أم يد التلميذ فى الشتاء .

ت المرق أكثر حرارة .

م أيُّهما أشدّ سخونة ؛ أنَفَسه أم يده ؟

ت نَفَسه .

م أيُّهما أشدُّ سخونة ؛ أنَفَسه أم المرق ؟

ت المرق .

م إذا فطَنت إلى هذا علمت أنَّ النَّفَس أكثرُ سخونة إذا قيس بيد التلميذ شتاء ، وأقلُّ سخونة إذا قيس بالمرق .

ت نعم وقد بدت على وجهه أمارات الارتياح .

م لا يخفى أنّ النفَس تختلف حاله باختلاف مايقاس به ، فيكون أكثر حرارة إذا قيس بشيء ، ويكون أقلّ حرارة إذا قيس بشيء آخر . أليس كذلك ؟

ت هذا حقٌّ لا شبهة فيه .

م فما ذا هو إذا قيس بالمرق ؛ أهو حارٌّ أم بارد ؟

ت بارد .

م وما ذا هو إذا قيس بيد التلميذ عند اشتداد البرد ؟

ت حارٌّ

م فالنفَس حارٌّ إذا قيس بيد التلميذ ، وبارد إذا قيس بالمرق ، وحقيقته واحدة لم تتغيَّر فى ذاتها .

ت لقد استفدت من بحثك هذا ، ولقد وصلت يقيناً إلى معرفة الحقّ وزال عنّى الشكّ ، وأشكر لك هذا الصنيع .

من ذهب الى أن الفطرة شر

(٢) وذهب فلوطين[1] إلى أنّ الفطرة شرّ ، والنفس فى نظره

(١) فلوطين Plotinus توفى سنة ٢٦٢ قبل الميلاد وهو مصرى ومن أسرة رومانية . واعتمد فى نظريته على فلسفة افلاطون Plato

جوهر مجرّد مستقلّ ، هبطت من العالم العقليّ إلى عالم المادّة لتبتلى . وبينما هى فى أثناء الحياة المادّيّة ، يمكن اتّصالها بالعالم العقليّ بتصفيتها من أدران اللذّات ، وأخذِ الجسم بأشدّ أنواع الحرمان من ألوان الطعام والشراب ، وحصرِ الفكر فى أمر هذه القربى ، والتخلّصِ من كلّ ماله علاقة بالعالم المادّىّ ، والتجرُّدِ من زخرف الدنيا ومن الميول النفسيّة . ومن يَسُسْ نفسه بهذه الرياضة يُرهقها بالآلام والمشاقّ ، ويرهف حدّها بدوام الصوم ، وإهمال مطالب الجسم من النظافة واللبس والغذاء وإماتة الحواسّ ، والعزلة عن الناس . فإذا تمّ له ذلك فإنّ النفس تتطلّع إلى العالم العلوىّ ، وتتوق إلى ما حواه من جمال وصفاء ، وتتّصل بمبدعها . فاتّصال النفس الطاهرة الأصل بالعالم المادّىّ حوّل فطرتها وصبغها بصبغة الشرّ . وقد جرى على هذا المبدأ أبو الطيّب المتنبّى[1] إذ يقول : —

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفّة فلعلّة لا يظلم

وتبعه أبو العلاء[2] المعرّىّ فاعتقد أنّ الإنسان شرّير بطبعه والفساد غريزة فيه . وقد ثبّته على هذا المبدأ ما عاناه من الآلام من

---

(١) أبو الطيب المتنبى توفى سنة ٣٥٤ هـ أديب التحق بسيف الدولة بالشام ومدحه . ثم دخل مصر ومدح كافورا الاخشيدىّ ثم هجاه . ثم دخل بلاد الفرس ومدح عضد الدولة بن بويه .

(٢) أبو العلاء المعرّىّ توفى سنة ٤٤٩هـ عمى بعد ولادته بأربع سنين وهو من أساطين الأدب . لبث زهاء ٤٥ سنة بعيداً عن أكل اللحم ، متزهداً عن تعذيب الحيوان بالذبح واعتقد أن الزواج جناية

خاطائه فاعتزلهم مفتخراً بأنه رهين المحبسين : العمى والعزلة . ومن قوله فى هذا المعنى : « ومن جرَّب الأقوام أوسعهم ثلبا »

وفضيلة النوم الخروج بأهله عن عالم هو بالأذى مجبول

وقد غلا فى هذه العقيدة حزبان كبيران اشتهرا فى القرن الثامن عشر ، وهما اليسوعيُّون[1] واليَنسيُّون[2] ، فقد حملا لواء التعليم ، وألفا الكتب ، وبنيا المعاهد العلميّة ، وسنّا الأنظمة المؤسَّسة على عقيدة أنّ الإنسان مفطور على الشرّ ، ولا يحوّله عن هـذه الفطرة السيئة إلا صارم العقاب ولذيذ الجزاء ، وتوسّعا فيهما بدرجة خرجت عن الحدّ المقبول والمعقول .

وفى آخر هذا القرن ظهرت مؤلّفات روسُّو[3] ، وتولّى الردَّ فيها على من ظلم الفطرة الشريفـة بنسبة الشرّ إليها ؛ ووجّه سهام مطاعنه الصائبة إلى هذين الحزبين فيما وضعاه من الأنظمة ، وأقرّاه من المناهج ، وسلكاه من السبل التى حرمت النشء مساكنة الطبيعة واستجلاء محاسنها ، وقراءة أسطر الجمال فى صفحاتها . وقف موقفـه هـذا بين الفرنسيّين ، حاملاً بين جنبيه نفساً أبيّةً ولساناً ذَلِقاً . واكتسب فطانته من وحى الفطرة لا من الممارسة ، وكانت نفسـه

(١) (Jasuits) (٢) (Jansenists) (٣) (Rousseau)
روسو كاتب فرنسى روائى توفى سنة ١٧٧٨ م تعلم بالممارسة ، ولم يطق صبراً على مبادئ اليسوعيين وانتقدها ، واختط نظاماً جديداً أودعه كتابه أميل فاضطهدوه وتوعدوه فهرب منهم . وآراؤه فى التعليم نظرية فكرية لا عملية تجريبية .

توّاقة إلى الرجوع إلى محا كاة الطبيعة والبعد عن زخارف الصناعة . وقد وصلت دعوته إلى أعماق قلوب العقلاء فالتفّوا حوله ، وألّف منهم عصبة ناوأت هذين الحزبين ، وهَزِئت بعِلْيَة القوم منهما حتّى قام من أجلها نذير الشرّ ، وتأجّجت بينهما نار العداوة ، وكانت من مثيرات الثورة الكبرى التى قلبت فرنسا ظهراً لبطن . فانتهز هذه الفرصة ، وشرع يغرس فى باحة هذه الأنقاض دَوْح الأفكار الصحيحة .

درس روسّو الطباع الإنسانيّة بالعِيان ، فكان يحتجب عن النشء بحيث يراهم ولا يرونه ، ويتفقّد حديثهم فيما بينهم ، وحركاتهم التى لا رياء فيها . وكتابه « إميل » حسن الأسلوب جميل الصوغ بديع التأثير ، تمشّى مطالبه فى العواطف تمشّىَ الروح فى الجسم .

من ذهب الى أنّ الفطرة استعداد لهما

(٣) جاء القرآن الشريف بعقيدة أنّ الفطرة استعداد للخير وللشرّ معاً . قال تعالى : « أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ » (١) . وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » . « إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ، إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا » .

وقد أوزع الله النفس أن تتعشّق المحسّات التى هى أصول للمعانى الذهنيّة . فإمّا أن تسمو فتتعلّق بالفضائل وتنفر من الرذائل ،

(١) طريقى الخير والشر

فتكون مندرجة تحت هذا الخطاب « يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِى إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً » . وإمّا أن تنكص على عقبها ، وتنزع إلى العالم المادّىّ ، وتتلوّث برذائله وأوضاره فتبوء بالشرّ « إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّى » .

والحركات الإراديّة مناط الثواب والعقاب ، وبها تقاس درجة الميول الكسبيّة .

من ذهب الى أن الفطرة خِلوٌ من كلّ ذلك

(٤) ورأى كانت[1] أنّ الطفل منذ ولادته إلى سنّ محدودة ليس له حياة أدبيّة ؛ فلا تنسب فطرته إلى الخير ولا إلى الشرّ لأنّه لا يعقل مايفعل . وعشّاق هذا الرأى لا ينكرون الوَساطة بين الخير والشرّ .

نقد المذهب الثانى

إلى هنا مرّت بك آراء الحكماء فى نزعات الفطرة وهى أربعة . ولا أريد أن أتصدّى لنقدها ، وتمييز غثّها من سمينها ، وإنّما أكل إلى اللبيب الفطن إنعام النظر فى مضامينها ، وأعرض عليه شبهات تحوم حول عقيدة فطرة الشرّ التى مقتها كبار المربّين . فعشّاقها يعتقدون أنّ الأرض إذا أُهملت من الزراعة أنبتت الحَسك[2] بطبيعتها . وهذا مردود لأنّ إهمالها من الزراعة يجعل الفطرة الطاهرة خاضعة لما تلقيه الرياح اللواقح من البزور . وأنّ الحسك النابت فى البَوْر[3]

(١) كانت Kant حكيم ألمانى توفى سنة ١٨٠٤ م اشتغل بالحكمة والرياضيات والطبيعيات ، وعاش طويلا ممتعاً بصحة نادرة المثال

(٢) نبات فى ورقه شوك صلب ذو ثلاث شعب

(٣) الارض قبل أن تصلح للزرع

ليس ناتجا من فطرتها الخبيثة بل من إهمال تعهُّدها . وليس من الحكمة أن تُطلق الدابّة تعيث فى الأرض فسادا ثمّ تُنحى باللوم على طبيعتها .

كذلك يعتقدون أن الطفل فيه قسوة وجبروت ، يُمسك الطائر بلا رحمة ويسومه العذاب ، ويتناول الشيء فيفرّق أوصاله . وليس اعتقادهم وجيها ، لأنّ خلوّ فكر الطفل من الحقائق دفعه إلى مزاولة التجارب ، فيحلّ العناصر ويعقدها ، ليستخرج من أعماله حقائق يلتذّ بوجودها .

كذلك يعتقدون أنّ الطفل يسرق . ولو علموا أنّه ساذج جاهل لمعنى الملك لجرّدوه من نسبة الشرّ إليه . أمّا كونه يَعُدّ نفسه مالكة لكلّ ما يجده فسلّم ، ولكنّ هذا راجع إلى حبّه الغريزىّ للحياة ، وإلى جهله معنى الملك فى مصطلح المجتمع الإنسانىّ .

كذلك ينسبون إليه الصلف والكبرياء ، والحقيقة أنّ الآباء يُطْرون أبناءهم ، ويَغْلون فى مديحهم فيخدعونهم ويغرّونهم ، ويتساهلون فى عرض الأمور عليهم بعيدين عن الحيطة والتدبُّر ، فيثبت فى ذهن الطفل هذا الأثر الردىء ، ومرجع ذلك حمقهم ، وطبيعة الطفل من ذلك بريئة .

كذلك يتّهمونه بالشره . ولم يوصم بهذه الخَصْلة إلّا بانغماسه فى النعيم . ولو أنّهم أبعدوه عن مظاهر الترف ، وصرفوه عن العادات المزرية ، وحالوا بينه وبين البيئة السيّئة ، لوجدوا منه شخصا كريم الطباع .

كذلك ينسبون إليه الكذب ، وما صدقوا فيما وَهَموا ، ولو فَطَنوا

لعلموا أنّ الكذب أثر لازم للخشونة التى يلقاها الناشئ من قساة المعلّمين ، فيختلق الكذب ليتلمّس النجاة من الحيف ، ويحاول الهرب من شرّ مستطير ، ويَسْدُل على الحقيقة غشاءً كثيفا .

يحتدم المعلّم غيظا ويدعو الطفل أمامه ، ويشدّد النكير عليه سائلاً عمّن كسر الإناء مثلا . فينسى الطفل الحقّ عند الإجابة ، تخلّصاً من شرّ العقوبة وحبًّا فى السلامة .

كذلك يكذب أحيانا فى ادّعاء الإفلاس وهو موسر ، لأنّه يخاف طمع الطامعين فى ماله .

ونراه أحيانا يكذب ، ونتحرّى السبب فنجده مرضاً قلَب كيانه وجعل الباطل أمامه حقًّا . وقد رُوِيَ أنّ طفلاً كان مضطجعاً فى فراشه ، ولمّا غابت عنه خادمه رأى كأنّ الشمعة المضاءة فى الحجرة قد استطالت حتّى زاد طولها على متر ، ثمّ تقدّمت إليه مرّة وابتعدت عنه أخرى . قصّ هذا على خادمه فاعتقدت أنّه كاذب ، ثمّ دعت إليه أمّه فقصّ عليها الرواية عينها واهماً أنّها حقٌّ لا ريب فيه . ولمّا استجلت الحقيقة تبيّن لها أنّه مصاب باضطراب عصبىّ مشفوع بحمّى ، ومن كان هذا شأنه فإنّه يَهْذِى .

وربّما تعلّقت نفسه بالكذب لإهمال المشرفين عليه اختيار ما يقرؤه ، فتسوّل له نفسه قراءة الأساطير الخرافيّة ، والروايات الغراميّة ، فتجنى عليه .

وغالباً يركب معه المعلّم مركباً خشنا ، فيسوق إليه المعانى الدقيقة

مجرّدة من ثوبها الحسّيّ فيَشِتُّ ذهنه ويضلُّ عن الحقّ ، فيلتجئ إلى الكذب فيلفّق منه مايشاء ، وإلى الوشايات فيفتريها على من يشاء ، شأن من لا يميّز الغثّ من السمين ، والخطأ من الصواب ؛ وشأن من لايفرّق بين الإساءة والإحسان ، ومن لايوازن بين الإحسان والإحسان .

إذا زالت كلُّ هذه العوائق وصلح مزاج الطفل ، سرى الأثر الواقع على الحواسّ إلى الأعضاء المنفذة ، وفعل الفعل الذى يرشد إليه وجدانه ، فتجده يلتزم الصراحة والصدق حتّى يعتادهما .

فطرة الرجل والمرأة

ذهب سقراط وأفلاطون [1] إلى أنّه ليس بين الرجل والمرأة تفاوت كبير فى القوى العقليّة . ولذلك لم يفرّقا بينهما فى العلوم التى يجب عليهما دراستها . وعارضهما أرسطو [2] بأنّ الطبيعة البشريّة

(١) أفلاطون Plato توفى فى القرن الرابع قبل الميلاد وهو تلميذ سقراط ، اغريقيُّ الجنس جال فى أنحاء المعمورة ثم عاد الى أثينا وفيها أسس مدرسته التى سماها Academy وصارت محطا لدراسة الفلسفة

(٢) أرسطو Aristotle توفى سنة ٣٢٢ ق م وهو تلميذ أفلاطون . ومع أنه كان يوقر أستاذه قد عارض أفكاره . ولما مات أستاذه وكانت سنّ أرسطو ١٤ سنة تاقت نفسه إلى رآسة المدرسة ، لكنه حرمها فغادر أثينا ؛ واستدعاه فيليب ملك مقدونيا وسلمه ابنه الاسكندر ليعلمه . وبفضل هذه التربية نهض الاسكندر بأعباء الملك بعد أبيه بهمة نادرة المثال . ثم رجع أرسطو إلى أثينا وأسس فيها مدرسته وعكف على التدريس فيها . وبموت الاسكندر أفل نجمه وتغلب عليه الحاقدون فهرب منهم الى حيث توفى

فرّقت بين طبيعتهما فميّزت الرجل بالقوّة ، وخصّت المرأة بأنواع المتاعب تقاسيها زمن الحيض والحمل والوضع والرضاع . وهذا التخالف دعاه لأن يرسم لكلّ من الرجل والمرأة نظاماً يلائم المزاج .

ولقد وفّق المربّون بين رأيهما ، فرأوا أن لا تفاوت بين الولد والبنت فى غضون السنوات السبع الأولى ، فلا غضاضة إذا اشتركا معاً فى نظام واحد . ثمّ تنفرج زاوية الخلف بينهما فى زمن المراهقة ، إذ البنت تدخل سريعاً فى طور النماء ، وهذا يستنزف نشاطها ويصيّرها عرضة للأمراض العصبيّة ، وقد دلّ الإحصاء على فشوّ الأمراض بين البنات وهنّ فى طور التعلّم . قرّروا هذا مستندين إلى أنّ وزن دماغ الرجل أثقل بنحو ١٠ ٪ منه فى المرأة ، وثقل المخّ من دواعى الفطنة والذكاء ، ويناسبهنّ حينئذ أن يكون بين دروسهنّ شىء من فنون الجمال ، ليبعث فيهنّ الشوق إلى التعلّم يدفعهنّ إلى مقاومة أسباب الفتور .

نعم يتبادر للمطّلع على هذه النسبة أنّ الرجل أقدر من المرأة على الحركات العقليّة ، غير أنّه إذا نظر من جهة أخرى إلى أن نسبة ثقل المخّ إلى ثقل الجسم فى المرأة أوفرُ منها فى الرجل ، يتبيّن له أنّ لكلّ منهما مواهب يكونان بها قويّين أو ضعيفين إذا قاما بالواجب أو قصّرا فيه . أمّا ما يشاهد من رجحان القوى البدنيّة فى الرجل فلِما يستلزمه جهاده وجلاده للحصول على القوت ؛ وأمّا هى فقد قصرتها العادات

القوميَّة على تدبير البيوت ، فلم تتمتَّع بما يتمتَّع به الرجل من مساكنة الطبيعة ، وتمرين الأعضاء تمريناً يدعو إلى نموّها وازدياد قوّتها .

الحيوان والانسان

والذى حارت البريَّة فيه حيوان مستحدث من جماد

تتحيَّر عقولنا إذا نظرنا إلى خَلْقه وحركاته وانقياده لسلطان الغرائز ، وقد يشارك الإنسان الحيوانَ فى بعض هذه الغرائز فيستأنس بذلك ، ولا يعجب من فواعلها كما يعجب من مثل غريزة الهداية إلى الوطن عند بعض الحيوان وعند أكثر الطير والحشرات . أخبرنا التاريخ أنّ حمام الزاجل حمل البطاق وطار بها من مكان إلى آخر ، حتّى استخدم فى الحصار ، لحمل الأخبار ، وقد أقامت له مصر فى الأعصر الغابرة أبراجا ، وعيَّنت لها حُرّاساً يراقبون وصول الحمام ليلا أو نهارا .

والفواخت وهى من ذوات الأطواق تقطن الأقاليم الشماليّة ، وإذا آلمها البرد هجرت موطنها ، وطارت مسترشدة بقائد تختاره من بينها إلى حيث يطيب لها المقام ، ثمّ تقفل راجعة إلى وطنها فتهتدى إليه كأنّ بينها وبينه جاذبيَّة ، وربَّما لا يتأتّى لها وهى طائرة فى جوّ البحار أن ترى معالم تتعرَّف بها طريق الوصول .

ربّيت قطّا بمنزلى ، ثمّ طاحت بأخلاقه الطوائح ، فوضعته فى قفص موصد ، وأسدلت عليه غطاء ، وأطلقته على مسافة بعيدة . وما

كاد يمضى أسبوع حتّى عاد إلى منزلى وهو يموء بصوت المعتذر المستاء

نتلمّس السرّ فى الهداية إلى الوطن عند هذه الحيوانات فلا نفهمه، لأنّنا لا نشاركها فى هـذه الغريزة . ويتبادر إلينا أنّ الحيوان يعتمد على وجدانه ، أو أنّ له قوّة خفيّة تدرك التغيّرات التى يلقاها فى طريقه فى أثناء مهاجرته فيضبطها ، ثمّ يستذكرها عند مسيس الحاجة

وإذا أنعمنا النظر إلى الزنبار نراه قبل أن يتحوّل عن عشّه يحوم حوله على دوائر صغيرة فكبيرة ، كأنّه يرسم فى خياله معالم موطنه لتساعده على الاهتداء إليه

أمّا الإنسان فما أضعف حظّه من القوى البدنيّة ، تلقاء مايموج بصدره من آلاف المطالب فيما يتعلّق بغذائه وملبسه ومسكنه ! حتى استفزّته القـدرة الإلهيّة إلى مشاركة بنى نوعه فى ميادين المحاكاة والمنافسة ، ودائما يكدّ لسدّ نقصه ، ورأب صـدعه . ومع أنّ حبّه لهذه المشاركة فطرىّ ، لا ينال غرضه على ماينبغى إلّا بالتعليم الصحيح الذى يلائم ما ركز فيه من الاستعداد للتعلّم ، والاستفادة من التجارب الذاتيّة والنوعيّة ، والتكيّف عند عروض الحوادث ، ولذلك تفاوتت درجات الناس فى الجَدَارة ؛ على أنّ اختلاف العناية بهـذا الاستعداد وبذرائع التعليم ، أوجد بين أفراده تفاوتاً كبيراً ، كالذى نراه بين الحيوان الوحشىّ والداجن الذى من نوعه ، فالوحشىّ بعـد ميلاده يعتمد على محض سعيه ، والداجن يستند إلى غـيره ، فيفقد قوّة السعى الغريزيّة .

ولا يخفى أنّ الطفل إذا زاول الأُمور بنفسه ، فى حالتى يسره وبؤسه ، وذاق من الحوادث مرّها وحلوّها ، وتقلّب على نار الكوارث صغيرها وكبيرها ، يكون على شاكلة أهل البادية رجلا شهما .

أمّا الطفل الذى قعد به حظّه ، وساءته تصرّفات المشرفين عليه ، فاحتفظوا به كالمتاع خشية أن يؤذيه مرّ النسيم إذا هبّ ، فتراه مغبون الحقّ ، ضعيف الصحّة ، سقيم الرأى ، كالذى نراه بين أبناء الطبقة المترفة .

يخرج الطفل إلى عالم الوجود مجرّداً عن معرفة اللغة التى يعبّر بها عن أغراضه ، جاهلا سنن الكون ، لا يملك إلّا الاستعداد الفطرىّ الذى يرهف التعليم حدّه ، ويزيده مضاء وشدّة . فما بالنا حينئذ نهمل تقويمه وهو يزداد بالاختبار نبلا ، ونتخم فكره بالمعانى الصعبة ، ونلقّنه قضايا العلوم الدقيقة لنخرجه قبل أوانه رجلا كبيرا ، لما ذا لا نسلّمه إلى الحوادث فيتعلّم من خيرها وشرّها ، ماينبّه التفاته ، ويقوّى مداركه ، ويفيده فى معترك الحياة !

إنّ للتعليم نظاماً إذا روعى حوّل الطفل الضعيف إنسانا كبير النفس قوىّ الإرادة . وها هو ذا قد احتواه جوف الأرض باحثا ومنقّباً عن خيراتها الدفينة ، ورفرف فى الهواء حتّى صارع النسور على قمم الجبال ، وخاض البحار بالجاريات ، واتّخذ من البخار والكهرباء خادماً لمصالحه فى حلّه وارتحاله .